

البلاد الخيرة

جاء صاحبي من القرية المجاورة ، وهما ضيفان عزيزان عليّ ، فقلت في نفسي : أما كان الأجددُ بهما الحُضورُ في وقتٍ مبكرٍ حتى أتمكّن من الاحتفالِ بشخصيهما وتقديم الواجب اللائقِ بهما . فقال أحدهما : لا عليك يا صديقي فنحن نأكلُ ما حَضَرَ ، فقلت إنها الفطائر الساخنة المحشوة بالحميض والفطر والكشك والمغمّسة بالزيت والسمن البلدي ، ولكن انتظروني بعضَ الوقتِ ! ، وفي هذه اللحظة حطَّ سِرْبٌ من طيور الزرزورِ على شجرة اللوزِ قرب دارنا ، وهكذا تناولت بندقية الصيد التي تركها والدي عند وفاته وعبأتها بطلقتين ، وتقدمت خطواتٍ وأطلقتُ عليها رصاصاتٍ مُتَنَاقِرةٍ ووقعَ منها الكثيرُ ، وتقدّمنا نلتقطُها ونذبُحُها ونحضّرُها للقلبي بزيت الزيتون ونشوي بعضها داخل الفرنات ، وكانت وليمةً سريعةً لذيذةً ، قدّمْتُها لصاحبيّ العزيزين فشكرنا الله على هذه الخيراتِ وتمنينا دوامها على الناس .

كان في دارنا مغارةٌ رومانية أو أقدم ، تمتدُّ إلى عشرات

الأمطار تحت الصخور ، وجثث بزواج من الأرانب وأسكنتها فيها وعلمت كلبى أن يحميها من القطط والنسائس وغيرها ، وكانت تخرج منها في كل أربعين يوماً دفعاتٍ من مواليدٍ جددٍ ، حتى صارت أعدادها بالمئات وهي تخرج وتسرح في الكرم وتأكل من العشب البري وما نُقدّمه لها من الطعام الزائد عن حاجتنا ، وصار كل من يطلب يحصل على زوج أو أكثر منها ، فيطهون لحماً وبرغلاً ولبناً فيأكلون ويحمدون الله على هذه الخيرات التي وفّرها لهم في هذه البلاد الغالية .

وإنك لن تعدم وسيلةً لتجد ما يسعدك ويكفيك من أسماك بحيرة طبريا التي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات ، والتي يحضرها الصيادون طازجةً أو حيةً .

وغالباً ما كنا نذهب إلى وادي السمك ونُمسك ونحوز على هذه الأسماك بعد مُلاحقتها تحت الصخور أو في الغدران ، وتكون في موائدنا شهيةً مقليةً أو مشويةً .

أما الأرانب البرية ، فتكثر في الحقول وبين الشجيرات والأحراش وهي تتوالد وتكبر وتصبح هدفاً للصيادين ، وكذلك الغزلان التي كانت تسرح في شعاب الجبال وعند الوديان والسهول ، ولحومها من أطيب ما تناولنا وأكلنا وطبخنا في موائد يغمرها سمنٌ بقرى أو زيت الزيتون المفيد .

وأما منتجات الألبان والأجبان فهي وافرةٌ بقدر وفرة العشب

والكَلأِ فَتَفِيضُ من القُدور والجِرار ، وقطعانُ البقرِ والجاموس
والماعز ، وتُذِرُّ حليياً بقدرِ ما تتواصلُ مع رُعاتها وحلّاباتها ،
وغالباً ما كانت الحلابَةُ تنادي هذه الحيوانات بِحَنانٍ وتُغني لها
ألحاناً وهي تحلبُها ، ومنهن من تُسمي كلَّ بقرةٍ باسمٍ مُحِبِّ
فتطربُها فتملاً منها الأواني ، وكانت النيران المشتعلةُ من الحطب
تحت القدور فتغلي ، ويكثر الخير فيشبعُ منه الأهل والضيف .

أما الخضار والفواكه فهي متعدّدة باللون والطعم والرائحة
وتدور على مدار العام ، فأنت تجدُها في السهل والجبل والوادي
الذي ينخفضُ في هذا الغور العميق ، في شاطئ البحيرة التي
تهبطُ إلى ما دون ١٥٠ م تحت مستوى سطح البحر ، وهي كثيرةٌ
في قرى البطيحة العشرة والمنخفضات المتفرعة عنها ، وكانت
تنضجُ في فصل الشتاء والربيع حيث تُسمّى البواكير وتُصدّرُ إلى
دمشق والمدن السورية .

وفي الطبيعة أنواعٌ كثيرةٌ من النباتات البرية المغذية وهي
مطبوخةٌ أو خضراء طازجة ، منها الأرضي شوكي البري
والعكوب والشَمرا والحُميص والهندباء والزعرُّ ، وزهرة الكلخ
والجرجير والخبيزة والمرار والجلثون ، والكزبرة والحويّرة
والحُرْفيش والسّناريا والقُرّا والدريهمة والقرصعنا والقريص ،
ولسان الثور واللوب والجُعدة هذه النبتة التي يبحث عنها طيرُ
الكركي فهي طعامه المفضّل ، وثبتَ أنها تُفيدُ مرضى القلب ،
وهناك التوت البري وثمرُ الدوم والزعرور والبلوط والخروب ،

أما المشمش البري الذي ينبت على سطح الأرض وثمره المدور والمتراكم وسط نباتٍ سطحي ، وعندما يَضْبُجُ ويصْبُحُ أصفر يملأ الجوَّ برائحةٍ زكيةٍ تشمُّها من مئات الأمتارِ وطعمه لذيذٌ كطعم المشمش .

أما الطيورُ البريةُ فحدث ولا حرج ، ففي الحقول والبساتين والشعاب مئات الأنواع منها: الدوري والزرزور والدُّرَج والطيطبوز والفِرِّي ، وأم طواق والزَّرعي وأبو قنبرة (الجَعْفُون) والحُمَّرة والبليقي والعليلي ، والظُّلل والحسون والهدهد والحمام والسنونو ، وكثيرٌ من طيور البحر عند البحيرة ، والشحور والبلبل الذي يُعشِشُ في الوديان في بساتين الرمان والتين ، والحنيني والفِرْقَس وكلها تعزف ألحاناً جميلةً تشيِّفُ الأذان وتعطي المنظرَ بهاءً ومناظرَ حسنة .

كما أن الحجل يعيش في مجموعات على سفوح الوديان وبين المنحدرات ، ويبعثُ ترانيمَ يتردَّدُ صداها في رؤوس الجبال وبين المنحدرات عند غروب الشمس وطلوعها .

أما أزهار الجولان فهي متنوعة ومتعددة وعطرة وفواحة حتى أن للجولان أزهاره الخاصة الفريدة كزهرة السوسن التي كانت تفتح في الربيع والصيف ، ولها الألوان المزركشة الزرقاء والبنفسجية والبيضاء ، وكانت تغطي حديقة دارنا في قريتنا الساحرة العالية ، أما الأقحوان المزهو بطوله وألوانه البيضاء والصفراء ، وكذلك شقائق النعمان المنتشرة في الحقول والجبال

والوديان ، وكأنها بساط سندسي أبدعه خالق الكون ، أما البنفسج الفواح بمنظره المبهج للنفس والمفرح للأرواح ، يغطي نبات البابونج بأزهاره الصفراء العطرية المفيدة لأغلب الأمراض .

وهناك الزنابق المتنوعة المبعثرة في كل مكان في الوادي والسهل والجبل وعلى المقابر حيث يزرعها السكان فوق مدافن الأحبة ، ويتشجر أزهارُ المنثور والبنفسج والياسمين وورود الجوري والخيزريات المتنوعة ، والتوليب والقرنفل والنفل والخُزامى الزعتر والإكليل والدفلة والعبهر ، أما السّوس فينبت بكثافة في بعض المناطق خاصة في الوادي وعلى ساحل بحيرة طبريا ، أما الطيون فينتشر حول منابع المياه والعيون حتى إن عيناً منها سميت عين الطيون ، فهذه البلاد مخزناً من الأعشاب السحرية والطبيعية المفيدة كالزعتر والنعنع البري ، والأكاليل كلها والبابونج والمليسة ونباتات عطرية وللتداوي تعدّ بالميئات ومن الصعب إحصاءها .

* * *